قسم اللغة والأدب العربي.

السنة الثالثة – أدب –مج1

محاضرات في الأدب الصوفي

**التصوف الإسلامي : المفهوم والنشأة**

يعد مفهوم التصوف من أكثر المفاهيم إثارة للجدل على مر التاريخ، سواء ما تعلق منه بالتأصيل، أو بالتعريف، أو من حيث القضايا التي يطرحها.

يختص التصوف في موضوع بتزكية النفس وتطهيرها، فهو علم ذوقي ومنهج روحي ، يعتمد على تلق خاص له من خلال لغة متفردة مشحونة بدلالات نفسية وروحية جديدة، فشكلت بدلك تجربة أدبية مستحدثة على كافة الأصعدة سواء ما ارتبط منها بالمفاهيم والكتابة أو بالممارسة.

مفهوم التصوف : تعددت تعريفات التصوف وكثر الجدال في كونه علما مستقلا بنفسه عن باقي علوم الدين أو الفلسفة وقد أوصلها الحافظ ابو نعيم في كتابه حلية الأولياء إلى ما يفوق الثمانمائة تعريف، أما الشيخ زروق فقد أحصى للتصوف ألفيّ تعريف.

من الباحثين من يرى ـأن التصوف مستل من كلمة صوفيا اليونانية التي تعني الحكمة ، لكن ابن خلدون ينفي هذا القول كون كتاب الحكمة اليونانية لم يترجم إلى اللغة العربية إلا بعدما شاع التصوف وذاع سيطه في بقاع الأرض، وهناك اتجاه أخر يرجع التصوف إلى الصوف وهو اللباس الذي عرف به الأنبياء والعباد والزهاد، لكونه ارخص أنواع اللباس وأكثرها خشونة وديمومة من غيره، فقد عرف عن المتصوفة لبسهم للصوف واستعماله للخرقة كرمز للدخول في الطريق الصوفي .

أما الطوسي صاحب كتاب **اللمع** فيرجع التصوف لمصدر اشتق من كلمة صفوى، ولثقل الكلمة قيل صوفى ، وهو مأخوذ من الصفاء والنقاء، الذي عرفت به سرائر هؤلاء.

كما يقال أن مصطلح التصوف مأخوذ من **أهل** **الصفة** وهم الجماعة التي لازمت خدمة المسجد الحرام والتعبد فيه آناء الليل وأطراف النهار.

**تعريف التصوف اصطلاحا:**

**التعريف الأخلاقي :** يقول أبو بكر الكتاني"التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف"، ويقول الجريري" التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دوني" ، فأكمل المؤمنين إيمانا ـ أحسنهم أخلاقا.

لكن حصر التصوف في الأخلاق فقط يجعله في تداخل مع المنظومات الدينية والفلسفية الكثيرة القائمة على نشر الخلاق الطبية في بقاع الأرض، ولا يعبر بشكل كبير عن مفهوم التصوف.

**التعريف الزهدي**:

ارتبط مفهوم التصوف بمفهوم الزهد الذي عرف في مرحلة من مراحل الثقافة الإسلامية، وعرف الصوفي باسم الزاهد والعابد، ، يشتركان في الجانب الشكلي والسلوكي وهي العيش على طرقة الفراء والاقتصاد في المأكل والمشرب ولبس الصوف .الاستغراق في الطقوس عن طريق العزلة ومجاهدة النفس والاستمرار في العبادات واليأس في ما عند الخلق من ماديات ، وقد حلل الباحثون هذا السلوك بالصراع الدي عاشه الزاهد والصوفي قبل ان يتخذ ه\ا السبيل وعجز عن تغيير او مسايرة العالم الخارجي مما جعلهم يدخلون في صراع من أجل لتغيير.

يعرف التصوف على انه السير في طريق الزهد والتجرّد عن زينة الحياة الدنيا وشكلياتها وأخذ النفس بأسلوب من التقشّف وأنواع من العبادة، حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي ويقوى فيه الجانب الروحي.

عرّفه "الجنيد قائلا: " التصوف تصفية القلب عن موافقة البريّة ومفارقة الأخلاق الطبيعيّة وإخماد الصفات البشريّة ومجانبة الدواعي النفسانيّة ومنازلة الصفات الربانيّة والتعلّق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة"، يستند الجنيد في تعريفه للتصوّف على خلفية طالما استند عليها العديد من المتصوّفة، إذ يكاد الأمر يكون متّفقا عليه في عُرف الصوفيّة بأنّ التصوّف هو تخلّي مقابل تحلّي، تخلي عن الأمور المادية والدنيويّة ونبذ لكلّ ما يربطهم بالصفات البشريّة وفي المقابل ضرورة التحلي بمجموع الصفات التي تؤهّلهم لأن يكونوا من الأخيار، وهذا ما عبّر عنه الجنيد بمصطلحي التصفية/المنازلة، فالأوّل يملك دلالة التخلّي والقضاء عن كلّ ما هو دنيوي مادي، أما المنازلة فتعني الالتحاق بمجموع الصفات الإلهية مع ضرورة التحلّي بها.

-التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة في السلوك يستخدمها الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي، وعرفانه بالحقيقة وسعادته الروحيّة؛ على أنّ كلمة التصوّف إذا كانت من الكلمات الشائعة فهي كذلك من الكلمات الغامضة التي تتعدّد مفاهيمها وتتباين أحيانا، والسبب في ذلك أنّ التصوّف حظ مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة في عصور مختلفة، ومن الطبيعيّ أن يعبّر كلّ صوفيّ عن تجربته في إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار، ويخضع تعبيره عنها أيضا لما يسود حضارة عصره من اضمحلال أو ازدهار.

ويبدو أنّ التجربة الصوفية واحدة في جوهرها، ولكن الاختلاف بين صوفيّ وآخر راجع أساسا إلى تفسير التجربة ذاتها المتأثّر بالحضارة التي ينتمي إليها كل واحد منها.

**تعريف أعلام الصوفية للتصوف:**

قال الجنيد التصوف " أن يميتك الحق عنك، ويحييك به "

\* الكتاني فيقول "التصوف هو صفاء ومشاهدة، بدايته معرفة الله ونهايته توحيده"

أما **الغزالي** فيقول "الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، مهما حصل كان الله المتولي لقلب العبد ، والمتكفل به وبتنويره بأنوار العلم".

للتصوف خمس خصال جامعة وهب الترقي الأخلاقي، والفناء في الحقيقة المطلقة، والعرفان الذوقي المباشر، السعادة الداخلية، والرمزية في التعبير.

**مراحل التصوف:**

**المرحلة المبكرة**: تلك التي كانت مستمدة من مفهوم الزهد والإكثار من العبادات ، وتتبع السنة النبوية الشريفة ، وهؤلاء كانوا من الخلفاء الراشدين وصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل الصفة، اذ لم يكن التصوف حينها معروف بهذا الاسم ، لكن سلوك التقشف والتزهد هما الأساس في هذه الطائفة.

**مرحلة التصوف السنّي :** وهو التصوف الذي لم يخالف الشريعة، ولم يخرج عن تعاليم الدين الظاهرة المدونة في كتب الفقه، ولم يزل التصوف في هذه المرحلة يعرج على أدلة وشواهد من القرآن والسنة ، وابتعد أصحابه عن كل ما هو خارق للعادات من قول أو فعل.

**مرحلة التصوف الفلسفي:** هو التصوف الذي اختلطت فيها أفكاره بالعقائد والفلسفات الأجنبية ، من مسيحية وبوذية، جراء توسع رقعة الدولة الإسلامية ، وازدهار الترجمة ، مما سهل هذا الامتزاج الحاصل بين الثقافات.

وفي هذه المرحلة عرف التصوف نظريات كثيرة كنظرية وحدة الوجود لابن عربي، والاتحاد والحلول لدى ابن الفارض والحلاج، نظرية الفيض، والاشراق للسهروردي، وغيرها من مفاهيم ومعتقدات أدخلت التصوف في الفلسفة ، وأشعلت فتيل حرب طويلة بين الفقهاء ورجال السياسة وبين المتصوفة.

**التصوف الطرقي:** وهي المرحلة التي أصبح فيها التصوف مدرسة أو مؤسسة تقوم على مفهوم الشيخ والمريد والورد ، فشكلت تجمعات تعتمد على اخذ تعاليم التصوف وتعلم قواعده على يد شيخ يؤسس نظاما يتبعه المريدون والتلاميذ قصد دخولهم الطريق الصوفي، وكل شيخ يعتمد على طريق خاص به، ويمليه على مريديه، كما تسمى الطريقة باسمه، كالطريقة الرفاعية نسبة إلى الإمام أحمد الرافعي ، فدخل تحت لوائه قبيل وفاته مائة ألف مريد في المشرق العربي، وترك وما يقارب أربع وستين حزبا يتم تلقينه وتدريب المريدين على ترديده.

الطريقة البدوية تنسب إلى الشيخ احمد البدوي، والطريقة الشاذلية إلى الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وفي الجزائر انتشرت الطريقة الرحمانية ، نسبة إلى سيدي عبد الرحمان، والطريقة **الجيلانية** أو **القادرية** ، نسبة إلى الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني، **والتيجانية** نسبة إلى ابي العباس أحمد بن محمد التيجاني، وغيرها من الطرق التي أصبح لها مراكز وزوايا تعليمية يتم فيها حفظ القران الكريم وعلوم الدين إضافة إلى علوم التصوف.